قس بن ساعدة الأيادى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

مدرس بكلية اللغة العربية بالأزهر

نسبه : قال أبو حاتم السجستانى هو قُسُّ بن ساعدة ابن حذافة بن زفر أو زهر بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان ، وقد نقل ابن حجر العسقلانى فى كتاب الاصابة هذا النسب عن أبى حاتم ولكنه ذكر جُذَامة بدل حذافة ، وقال صاحب الأغانى هو قس بن ساعدة بن عمرو أو شمر أو عمرو بن شمر بن عدى بن مالك ابن ايدعان بن الغمر بن وائلة بن الطمثان بن زيد مناة بن مهدم أو يقدم ابن أفصى بن دعمى بن إياد ، فبينه وبين إياد على القول الأول ثلاثة آباء ، وبينهما على القول الثانى اثنا عشر أبا أو ثلاثة عشر أبا ، وقد يكون النسب الأول هو الثانى مع اختصار فيه ، ولكن يبعد هذا وجود أسماء فيه لاتوجد فى النسب الثانى ، فلا يكون مع هذا مختصراً منه ، ولعل كلا من هذين النسبين يمثل رأياً من رأيين فى قدم قس أو قربه من زمن ظهور الاسلام ، فقد ذكره أبو حاتم فى المعمرين ، وحكى أنهم قالوا إنه عاش ثلثمائة وثمانين سنة ، ونقل المرزبانى عن كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة ، ونقل الابشيهى فى كتاب المستطرف أنه عاش سبعمائة سنة ، فهو إذا كان قد عاش قبل الاسلام هذه القرون الطويلة (٦٠٠ أو ٧٠٠ سنة) فلابد أنه لم يكن بينه وبين إياد الا نحو هذه الثلاثة الآباء ، وإذا كان لم يعمر قبل الاسلام إلا الحد المعقول فى معمرى عصره فيكون بينه وبين إياد ما ذكره صاحب الأغانى من تلك الأصول ، وقد يكون قس على القول بقدمه إلى ذلك الحد لم يعمر أيضاً إلا التعمير المعقول ، فلا يكون بينه وبين إياد إلا تلك الثلاثة الأصول ولا يكون من رجال ذلك العصر الجاهلى الذى كان قبيل الاسلام ، بل يكون عصره أبعد فى القدم منه ، ويكون ابتداء ظهوره فى نحو عصر كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار من أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو قريب من زمن حوارى المسيح الذين قيل إنه أدركهم ، فاذا عاش إلى أن أدرك جداً أو جدين أو ثلاثة بعد كنانة يبقى بعد هذا بينه وبين عصر الجاهلية الذى كان قبيل الاسلام أزمان طويلة

وليس هذا كل ما يحيط بنسب قس إلى الأصل الأول لقبيلته وهو إياد من الغموض ، فهناك غموض أشد منه فى صحة نسبته إلى إياد نفسه ، ويكاد يقتلعه من هذا الأصل وتلك القبيلة التى أجمع النسابون على أنه منها إلى قبيلة أخرى غيرها ، فقد ذكر صاحب الأغانى فى سلسلة نسب قس أفصى بن دعمى بن إياد ، وذكر أيضاً فى نسب النابغة الشيبانى أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار فيكون أفصى بن دعمى على هذا من ربيعة بن نزار لا من إياد بن نزار ، ويكون قس من ربيعة لا من إياد ، ومن البعيد أن يكون أفصى بن دعمى المذكور فى نسب قس غير المذكور فى نسب النابغة ، وأن يكون الاتفاق فى اسميهما واسمى أبيهما من باب المصادفة ، على أنه روى مع هذا أن الجارود ابن عبد الله لما وفد فى وفد عبد القيس على رسول الله سأله يا جارود هل فى جماعة عبد القيس من يعرف لنا قسا ؟ قالوا كلنا نعرفه ، وفى رواية أخرى أنه لما قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله قال لهم ما فعل قس بن ساعدة الايادى ؟ قالوا مات يا رسول الله ، وفى رواية ثالثة أن وفد بكر بن وائل قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فقال هل فيكم أحد من إياد ؟ قالوا نعم ، قال ألكم علم بقس بن ساعدة ؟ قالوا مات يا رسول الله ، فكل هذه الروايات تفيد اتصال نسب قس بعبد القيس وبكر وهما من قبائل ربيعة ، نعم قد يمكن أن تكون إياد مجاورة فى السكن لهاتين القبيلتين فسأل رسول الله وفدها عن قس لمجاورتهما لقبيلته ، ولكن هذا لا يكفى فى دفع ما يفيده ظاهر هذه الروايات مع ما يفيده ذكر أفصى بن دعمى فى نسب قس ونسب شيبان وبكر وعبد القيس وغيرها من قبائل ربيعة ، بل إن سؤال رسول الله بكراً وعبد القيس عن إياد ظاهر فى أن إياد كلها من ربيعة لا قسا وحده ، وربما يؤيد هذا أن إياد لو كانت فرعا مستقلا من نزار لما أمكنه أن يحافظ على وحدته ذلك العهد الطويل ، لما تأباه طبيعة بلاد العرب ، إذ يعيش فيها أهلها عيشة ارتحال وتنقل ، وقد قضت تلك الطبيعة على فرعى مضر وربيعة أن ينقسما إلى مالا يحصى من القبائل ، فلا يمكن أن ينجو من تأثيرها فرع إياد على ما يراه النسابون من تفرعه من نزار مع ذينك الفرعين فى ذلك الأمد البعيد ، وإذا كانت إياد من

ربيعة فيكون التقاؤها مع قبائلها فى أفصى بن دعمى ، ويكون إياد بعد أفصى لا قبله ، وقد دخل أنساب القبائل تخليط كثير مثل هذا وغيره ، وربما كانت إياد نمت ذلك عن عهد بعد حروبها مع عبد القيس وغيرها من قبائل ربيعة

قبيلة إياد : كانت قبيلة إياد نازلة فى قديم أمرها بين إخوتها من قبائل معد ، فى تهامة والحجاز ونجد ، وكانت تقيم هى وأعمار معاً فى أرض تهامة ، بين حد أرض مضر إلى حد نجران وما والاها وصاقبها ، ثم نزحت من تهامة فى حرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر فى خانق ، فغلبت فيها وخرجت إلى العراق فنزلت فى سواده قرب مكان الكوفة ، فأقامت هناك دهراً ، وانتشرت فى تلك الأنحاء ، وكانت تغزو أهل العراق من العجم وغيرهم ، فلما كان عهد كسرى أنو شروان أغارت على نساء من الفرس فأخذتهن ، فأرسل إليها أنو شروان جيشاً أجلاها عن أرض العراق ، وشتتها فى البلاد ، فنزل بعضها تكريت ، ونزل بعضها الجزيرة ، ونزل بعضها أرض الموصل ، ثم سلط عليها أنوشروان قوماً من بكر ففتكوا بها ، وفرقوها فى أرض الروم ، وبلاد الشام

وقد اشتهرت قبيلة إياد بخطبائها ، وظهور قوة الخطابة فيها ، وكان خطباؤها مضرب المثل فى الفصاحة وقوة البيان ، وفى وصفهم يقول بعض الشعراء :

يرمون بالخطب الطوال وتارة ... وحى الملاحظ خيفة الرقباء

فذكر المبسوط فى موضعه ، والمحذوف فى موضعه ، والموجز والكناية ، والوحى باللحظ ودلالة الاشارة . وكانت قبيلة عبد القيس من ربيعة تساوى إياد فى خطبائها ، وشيوع الخطابة بين أفرادها ، ولعل هذا مما يقوى ما رجحناه من اتصال نسب إياد بنسب عبد القيس وربيعة ، ولكن عبد القيس لم تظهر فيها الخطابة إلا بعد أن انتقلت من البادية إلى عمان والبحرين ، حتى قال الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين : وشأن عبد القيس عجيب ، وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيلة فى العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا فى سرة البادية ، وفى معدن الفصاحة ، وهذا عجب

ولاشك أن إياد كانت فى سرة البادية مثل عبد القيس ، ثم انتقلت منها إلى العراق ، فالظاهر أن الخطابة لم تظهر فيها إلا بعد أن انتقلت من البادية مثل عبد القيس ، وقد علل ذلك بأنهم حينما تركوا سرة البادية جاوروا الأعاجم فى تلك الأماكن ، وكان الأعاجم أهل خطابة وكتابة ، ولهذا كثر الخطباء أيضاً فى اليمن عند اختلاط أهله بالفرس الذين أتى بهم سيف بن ذى يزن لاخراج الحبشة منه ، وهذا يفيد أن الخطابة العربية مأخوذة من الخطابة الفارسية مع أن الجاحظ قال فى موضع آخر فى الموازنة بين خطابة العرب وخطابة الفرس ، وبيان الأمم التى انفردت بالخطابة : « وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، وأما الهند فانما لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لا تضاف إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ؛ ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكىء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، وفى الفرس خطباء إلا أن كل كلام لهم فانما هو عن دراسة وطول فكرة ، ومشاورة ومعاونة ، وحكاية الثانى علم الأول ، وزيادة الثالث فى علم الثانى ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم ، وكل شىء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ومكابدة ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هو كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله »

وإذا كان هذا شأن خطابة الفرس وخطابة العرب ، فأين إحداهما من الأخرى ؟ وكيف أخذت الثانية من الأولى ، وهما يختلفان هذا الخلاف ، ولا يوجد بينهما أدنى شبه يدل على تأثر إحداهما بالأخرى ، واحتذاء خطباء العرب بخطباء الفرس فى الخطابة ؟ ولا يؤثر فى هذا أنا لا نسلم للجاحظ مايزعمه من انفراد الفرس والعرب بالخطابة ، وانفراد العرب بالقدرة على ارتجالها ، فقد يوجد فى غير العرب من يقدر على ارتجال الخطابة فى لغته ، وقد يكون فى العرب من لا يخطب إلا بعد تروٍ وتدبر ، ولكن العرب لشيوع الأمية فيهم ، كان يقل من يذهب هذا المذهب فى خطبائهم

فلم يبق إلا أن نعلل ذلك بأن أخبار هذه القبائل قبل انتقالها

من البادية بعيدة عنا ، ولم يصل الينا إلا قليل منها ، فما يدرينا أنها لم يكن فيها خطباء حين كانت بسرة البادية ؟ ولعله كان لها من الخطباء فيها ما لا يكون هناك محل لتعجب الجاحظ أو غيره منه

دراسة حياته : إذا رجع الباحث الى ما كتب عن قس في كتب الأقدمين المختلفة لا يمكنه أن يؤلف من الأخبار التي وردت فيها عنه سيرة صحيحة ، متلاءمة غير متدافعة ، متصلة غير منقطعة ، لها بداية معروفة ، ووسط غير مجهول ، ونهاية ليست غامضة ، وانما هي أساطير لا يمكن أن يعرف منها يقيناً زمنه متى بدأ ؟ ومتى انتهى ؟ ولا مكانه في تلك الأمكنة التي تنقلت فيها قبيلته ؟ وهل كان يعيش بينها ؟ أو كان يعيش بين قبيلة أخرى غيرها ؟ أو كان يعيش هائماً متنقلاً لا يقر في مكان ؟ فقد ورد أنه أدرك حواري عيسى عليه السلام ، ولكن ورد مع هذا أنه أدرك محمداً صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، بل ورد أنه أدركه بعدها وآمن به وعد من أصحابه ، ولا يمكن أن يكون قد أدرك هذين العهدين المتباعدين إلا اذا صدقنا أنه عُمّر حوالي ستمائة سنة ، كما يذكر هذا من بعده في مُعَمّري العرب ، وهذا أمر لا يمكن تصديقه ، ولم يحدث مثله من عصر الحواريين الى العصر الذي نعيش فيه الآن

وورد أيضاً أنه كان أسقف نجران ، فلا بد أنه كان يعيش عيشة مألوفة بين أهلها من النصارى ، ولكن أين اياد من نجران وقد كانت إياد مستقرة بالعراق في الزمن الذي ظهرت فيه النصرانية بنجران ؟ بل أين هذا مما يروى من أنه لم يكن تسكنه دار ، ولا يقره قرار ، ويتحسى في تقفره بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام ، وأخبر بعضهم أنه رآه على جبل بالشام يقال له سمعان ، في ظل شجرة الى جنبها عين ماء ، فاذا سباع كثيرة وردت الماء لتشرب ، فكلما زأر منها سبع على صاحبه ضربه بعصا ، وقال كف حتى يشرب الذي سبق ، قال فتداخلني لذلك رعب ، فقال لي لا تخف ليس عليك بأس ، ورووا أنه كان يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه ، وقد سأله مرة ما أفضل العلم ؟ قال معرفة الرجل بنفسه ، فقال له فما أفضل العقل ؟ قال وقوف المرء عند علمه ، فقال له فما أفضل الأدب ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه ، فقال له فما أفضل المروءة ؟ قال قلة رغبة المرء في اخلاق وعده ، فقال له فما أفضل المال ؟ قال ما قضى به الحق

وهذا كل ما رووه عن قس في حياته ، يحيط به الغموض في بدئه ، ويستمر متمشياً معه ، ثم يلازمه الى نهايته ، فلا تنتهي حياته بين قبيلته إياد ، ولا بين أتباعه الذين كان فيما يقال أسقفا عليهم في نجران ، بل يقال إنه توفي بروحين في خسف جبل بها ، وهي قرية قريبة من حلب ، وله بها مشهد يزوره الناس ، ويقصدونه بالنذور ، وله أوقاف محبوسة عليه ، وقد زاره أبو جعبل الألبيري فقال فيه :

هذي منازل ذي العلا ... قس بن ساعدة الايادي
كم عاش في الدنيا وكم ... أسدى إلينا من أياد
قد نالها بحلى البلا ... غة مفصحاً في كل ناد
قد قر في بطن الثرى ... متفرداً بين العباد

وقد قدروا له السنة التي توفي فيها سنة ٦٠٠ م وذلك قبل الهجرة باثنتين وعشرين سنة

ولكن هذا الغموض الذي يحيط بحياة قس من بدئها الى نهايتها ، وهذه الأخبار القليلة التي لا يمكن أن يؤلف منها لقس سيرة متصلة تعرف منها أطوار حياته طوراً فطورا ، كل هذا لا يمكن أن يتفق مع عيش قس في هذا الزمن القريب من ظهور الاسلام ، فكل رجال هذا العصر من شعراء وغيرهم معروفون لنا ، وقد وردت إلينا أخبارهم معلومة مفصلة . ولا تحيط بها هذه الأساطير من كل ناحية ، ولا يتفق مع هذا إلا مارجحناه في نسب قس من إدراكه عصر الحواريين ، وتعميره فيه التعمير المعقول في مثل هذا العصر ، فتكون وفاته قبل الاسلام بتلك الأزمنة المتطاولة ، التي تسمح بهذا الغموض الذي يحيط بحياة قس على شهرته وظهور أمره ، نعم قد روى حديث قس وسماع النبي له في سوق عكاظ من طرق متعددة ، وقد أفرد بعض الرواة طريقه وفيه خطبة قس وشعره ، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها ، ولكن ابن حجر العسقلاني ذكر في كتاب الاصابة ، أن طرقه كلها ضعيفة ، فلا يحتج بها في مثل ذلك

عقيدته : قد ذكر الأب لويس شيخو اليسوعي قساً في كتابه (شعراء النصرانية) وقد ورد فيما روى من أخبار قس أنه كان أسقف نجران ، وقد ذكر الجارود بن عبد الله فيما وصفه

به للنبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يلبس السوح ، ويتبع السياح على منهاج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقراً بالوحدانية ، تضرب بحكمته الأمثال ، وتنكشف به الأهوال ، وتتبعه الأبدال ، أدرك رأس الحواريين سمعان

ولا شك أن الأب لويس لا يعني بالنصرانية التي يثبتها لقس إلا هذه النصرانية التي تكاد تتصل بموت المسيح عليه السلام ، ومن أهم أصولها عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء ، وما الى هذا من أصول هذه النصرانية ، ولا شك أن الأخبار التي وصلت إلينا عن قس ، والآثار التي وردت إلينا عنه فيما كان يدعو العرب اليه ، لا تفيد أكثر من أنه كان يدعوهم الى التوحيد ، والايمان بالبعث والحساب ، ولم يرد فيها أنه كان يدعو الى عقيدة التثليث والصلب والفداء ونحوها ، وهي العقائد التي لا تثبت النصرانية التي يريدها القس لويس إلا بها ، بل لم يرد فيها أنه كان يدعو الى الايمان بعيسى عليه السلام ، وإنما ورد أنه كان يبشر العرب بدين جديد قرب ظهوره بينهم ، فلا يمكن أن تكون عقيدته هذه النصرانية التي يدعو الى دين بعدها ، وهي ترى أنها خاتمة الأديان ، وأن عيسى هو آخر الأنبياء الذي بشر به موسى عليه السلام ، فلا يمكن بعد هذا أن يكون قس أسقفا على نصارى نجران ، إلا أن تكون نصرانيتهم نصرانية أخرى غير هذه النصرانية ، ولكن الذي يفيده التاريخ أنها كانت من نصرانية الروم والحبشة ، ولهذا حاربوا أهل اليمن من أجلها ، ومع هذا فقد أثبتنا أن قساً كان أقدم من ظهور النصرانية بنجران ، ثم انه كان من إياد وكان أهل نجران من اليمن ، فلا يقبلون رآسة مثله عليهم ، لما كان من العصبية بين العدنانيين والقحطانيين ، وأما خبر الجارود إن صح فلا يفيد إلا أنه كان مثل عيسى في ذلك ، وقد ورد في بعض الأحاديث تشبيه أبي ذر الغفاري بعيسى في زهده وترهبه

فلا يعدو أمر قس إلا أن يكون من قدماء الحنفاء الذين ظهروا في بدء انحراف العرب عن ملة ابراهيم الى الوثنية ، فكان يدعوهم الى ملة أبيهم ابراهيم ، ويحارب فيهم هذه البدعة ، وهكذا كان شأن كل أولئك الحنفاء في العرب ، وهذه كانت وظيفتهم فيهم ، وقد حاول الأب لويس في كتابه (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية) أن يلحق كل أولئك الحنفاء بالنصرانية

ولا يخفى أن شأنهم في ذلك مثل شأن قس بن ساعدة

خطابة : كان قس خطيب العرب وحكيمها وحكيمها في عصره ، وكان على شهرته بالخطابة يقول الشعر ، فدل خطب أتى في خطابته بشيء من شعره ، يناسب موضوع خطابته ، وقد جدد في الخطابة العربية بعض أمور تنسب إليه ، منها أنه أول من قال فيها (أما بعد) وبعضهم ينسبها لغيره ، وقد نسبت لداود عليه السلام ، وفسر بها قوله تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) ولكن أسلوب الكلمة عربي خالص ، ولغة داود كانت عبرية ، وانما عظم شأن هذه الكلمة في الخطابة وغيرها ، لأنها تساعد على الانتقال من غرض الى غرض فيها ولا تحوج الخطباء في ذلك الى تكلف مناسبات طامية لا تقف فيه عند حد ، ويصعب على كل واحد فيه أن يأتي بما لم يأت به غيره ، وانما تحسن (أما بعد) في الخطابة والكتابة دون الشعر ، لأنها أسلوب نثري ، ولأن الشعر فيه من آثار الفنون ماليس في الخطابة والكتابة ، فيحسن التفنن فيه ، ويقبح التزام أسلوب واحد في التنقل بين أغراضه . ومما ينسب الى قس أيضاً أنه أول من خطب على سَرَف ، وأول من اتكأ في خطابته على سيف أو عصا ، وأول من كتب من فلان الى فلان

ولم يبلغنا من خطابة قس إلا قدر قليل لا يمكننا أن نعرف منه تماما كنه خطابته ، ولا المميزات التي تمتاز بها من غيرها ، ولا الدرجة التي يستحق أن يوضع فيها قس بين خطباء العرب ، وإن كان قس في الخطابة مضرب المثل ، وان كان الناس قد أجمعوا قديماً وحديثاً على تقديمه فيها ، وقد قال فيه أعشى قيس :

وأحكم من قس وأجرأ مِلَّذى
بذي الغيل من خفان أصبح خادراً

وقال الحطيئة :

وأقْوَل من قس وأمضى اذا مضى
من الرمح اذ مَسّ النفوسَ نكالُها

وقد يمكننا أن نحكم من القدر الذي وصل الينا من خطابة قس حكماً تقريبياً بأنه كان يعنى بالخطابة الدينية أكثر من غيرها ، فكانت أكثر خطابته في الدعوة الى التوحيد ، والايمان بالبعث والحساب ، وما الى ذلك مما كان يدعو العرب اليه ، كما يمكننا أن